

مدى الكرمل Mada al-Carmel

المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

برنامج دراسات إسرائيل

ملفات
مدى

بملف من عرب 48 (أ.ف.ب.)

قراءات في الحرب الاسرائيلية على غزة 2014
ملف رقم 3، 2014 | المحرران: إيمان شحادة ونديم روحانا.

العنف الجنسيّ، أجساد النساء والاستعمار الاستيطانيّ الإسرائيليّ

نادرة شلهوب - كيفوركيان | سهاد ضاهر - ناشف | سارة الحمود

كانون أول 2014

العنف الجنسي، أجساد النساء والاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي

نادرة شلهوب - كيفوركيان | سهاد ظاهر - ناشف | سارة الحمود¹

”لم يكتفوا بغزو وطننا، احتلال أرضنا وطرودنا منها، بل قاموا، أيضًا، باعتقالي واصطحابي إلى المسكوبية، مركز الشرطة. وضعوني في غرفة رقم 4، وحدي مدة طويلة. ثم دخل إلى غرفة التحقيق رجل طويل القامة قويّ البنية، ضابط شرطة. كنت وحدي وبدأت أرتجف خوفًا عندما أغلق الباب وأخذ يحرك الأشياء في الغرفة، ويتفحصني من رأسي إلى أخصي قدمي. انتابتني حالة من الرعب وتسارعت نبضات قلبي. اخترقت عيناه جسدي أثناء فتحه الأدراج باحثًا عن شيء ما. ثم غادر الغرفة وعاد بعد خمس دقائق حاملاً بيديه صندوقًا. أخرج زوجي قفاز بلاستيكي أزرق اللون، لبسهما وهو يتفحصني ويقول لي: تعالي إلى هنا... أترف بأنني شعرت بالرعب عندما اقتحموا المنزل وطرودنا منه. كنت متوترة جدًا عندما اعتقلوا ابني. لكنّ الخوف من - ”فاهم قصدي“... أنت تعلم... الخوف من استغلالني... اغتصابي بيديه الكبيرتين الزرقاوين وأشياء أخرى... كان أكثر اللحظات رعبًا في حياتي“ (مقابلة مع نساء فلسطينيات في القدس، 2014).

1. بروفيسور نادرة شلهوب-كيفوركيان: مديرة برنامج الدراسات النسوية في مدى الكرمل. باحثة ومحاضرة في قسم علم الإجرام-كلية الحقوق، الجامعة العبرية-القدس | د. سهاد ظاهر-ناشف: باحثة في العلوم الاجتماعية، منسقة برنامج الدراسات النسوية في مدى الكرمل. تعمل محاضرة ومرشدة في كلية "القاسمي" وكلية "أورانيم" للتربية | Sarah Ihmoud - Doctoral Student, National Science Foundation Fellow The University of Texas at Austin

كانت هذه كلمات ساما²، امرأة فلسطينية في السادسة والثلاثين من عمرها، احتلت مجموعة مستوطنين يهود منزلها في القدس الشرقية المحتلة، وانتهكت حياتها الأسرية، وفوق ذلك كله - اصطحبت إلى مركز الشرطة الإسرائيلية لتقبع تحت تهديد الاعتداء الجنسي، الذي نفذه ضابط الأمن الإسرائيلي ببطء وبشكل مُنْهَج. قصة ساما ليست استثنائية، حيث تتعرض النساء المستعمرات، اللاتي يعشن تحت وطأة الحرمان والتعرية، لانتهاكات يومية لجنسائتهن وحقوقهن الجسدية.

إنّ فهم العنف الجنسي واستغلال أجساد النساء كأدوات لمحاربة المستعمرين ضروري جداً لفهم البنية الأوسع للقوة الاستعمارية، الآليات التي تستخدمها لفرض الهيمنة العرقية، والمنطق الذي تعتمده لإبادة الآخر. ويظهر ذلك بشكل جلي في سياقات الاستعمار الاستيطاني، حيث تُنتهك جنسانية النساء المحليات وسلامتهن الجسدية، لأنهنّ مصدر ولادة الأجيال القادمة.

يعمل الاستعمار الاستيطاني - وهو "بنية وليس حدثاً" - وفق "مبدأ الإبادة" (Wolfe 2006) الذي يسعى للإبادة السكان الأصليين في منطقة معينة - (وهو عامل أساسي في الاستعمار الاستيطاني). يسعى الاستعمار الاستيطاني "للهدم بهدف الاستبدال"؛ حيث يرافق غزو أراضي السكان الأصليين مشروع القضاء على وجودهم في هذه الأرض، لاستبدالهم بالمجتمع والنظام الاستيطاني الجديد (المرجع السابق). ولهذا يدعي الباحثون أنّ منطق الإبادة الذي يعتمده الاستعمار الاستيطاني قد يُتّوج بإبادة جماعية للسكان الأصليين.

وفي صيغهم الأوروبية، قام الاستعمار الاستيطاني والإبادة الجماعية "بتوظيف قواعد تنظيمية عرقية" (Wolfe, 2006: 387). لقد رسّخت الدولة اليهودية - منذ إقامتها - المنطق الاستعماري العرقي، الذي يعتبر أنّ الفلسطينيين هو ذلك "الآخر" الذي يشكّل خطراً، مقارنة بالفرد والنظام الأبيض / اليهودي. وقد أشار العديد من الكتاب إلى أنّ هذا الترتيب العرقي صدر عن الأيديولوجية الاستشراقية لأوائل المفكرين الصهاينة، التي رأت أنّ الشعب اليهودي يجلب الحضارة الأوروبية إلى منطقة وشعب يتميزان بالتخلف.

2. هذا الاقتباس مأخوذ من ساما (اسم مستعار) شاركت بمجموعة بؤرية مع مجموعة نساء فلسطينيات من القدس، 2014.

”تمثل إسرائيل الحداثة، التقدم، الصناعة، والمثابرة؛ وتسعى لتحقيق مستقبل مشرق. إنها بعثة حضارية... في حين تمثل فلسطين الماضي، المحاولات الفاشلة، إن وجدت أصلاً، أرضاً قديمة لا تزال تُحرث باليد، وفشلًا دائمًا في حكمها. إنها مكان محصور في قبضة الماضي (Goldberg, 2009: 109)

استند مشروع ”التحديث“ أو ”بعثة التحضير“ إلى تصوّر صهيوني لأيدٍ يهودية فقط، تفلح أرضاً خالية وغير مزروعة، و”تجعل الصحراء مزهرة“. سعت القيادة الصهيونية - في أولى مراحل إقامة الدولة - إلى تحقيق تصوّر ”أرض بلا شعب لشعب بلا أرض“ من خلال التخطيط والتنفيذ المُنهج للتطهير العرقي لنحو 750,000 فلسطيني أصلا من فلسطين التاريخية خلال نكبة عام 1948، حيث يستمرّ هذا الترحيل حتى يومنا هذا من خلال المذابح التي ارتكبت في غزة، مثلاً، في شهري تموز-آب 2014، وبشتى الوسائل في مختلف أرجاء فلسطين التاريخية.

أجساد النساء الفلسطينيات وجنسانيتهن تُستهدف بشكل مُمنهج كجزء من "منطق الإجماع"، والإبادة العرقية الذي يعتمدها المشروع الاستيطاني الاستعماري الإسرائيلي. الاغتصاب والممارسات المختلفة للعنف الجنسي ضد النساء الفلسطينيات لطالما كانت جزءاً من محاولات الدولة الاستعمارية الاستيطانية لإبادة الفلسطينيين وإجلائهم عن أراضيهم (Shalhoub-Kevorkian, 2009). بالإضافة إلى الاغتصاب الجسدي والممارسات المختلفة للعنف الجنسي، فإن مشروع احتلال الأرض الفلسطينية محو تاريخها وزراعتها أو إعادة تشكيلها من جديد، يستمد طاقته من المنطق العرقي للعنف الجنسي بحد ذاته. وبالتالي، فإن مناقشتنا للعنف الجنسي والإبادة الجماعية الفلسطينية لا تُعنى بالممارسات والسياسات المنجسة للدولة الصهيونية فقط، بل تُعنى، أيضاً، بطبيعة العنف الاستيطاني الاستعماري بحد ذاته. وذلك لأن تصوّر الحركة الصهيونية لاحتلال واستيطان (وإجماع، طبعاً) الجسد الفلسطيني هو جزء لا يتجزأ من مشروع الاحتلال والاستيطان في الأرض الفلسطينية. نستند هنا إلى إقرار Andrea Smith بأن منطق العنف الجنسي الاستعماري "يرسخ الأيديولوجية القائلة بأن أجساد الأصلايين بطبيعتها قابلة للانتهاك - وامتداداً لذلك، فإن أراضي الأصلايين، أيضاً، قابلة للانتهاك" (Smith, 2005, p. 12). هذا المنطق من موضوعة الذات الصهيونية في خانة القادر على الانتهاك، وموضوعة الآخر الفلسطيني كشيء في خانة القابل للانتهاك، هي جزء من المنطق الاستعماري.

يتتبع المقال سير منطق العنف الجنسي، في سياقه التاريخي والحالي، كآلية، خفية ومرئية، للنظام الأبوي الاستعماري ضد المجتمع الفلسطيني. نحن نرى أن منطق العنف الجنسي الظاهر في نظام الحكم الإسرائيلي - بما في ذلك الاعتداءات الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية الأخيرة - هو جزء لا يتجزأ من مشروع استعمار الأرض الفلسطينية.

العنف الجنسي والإبادة الجماعية من منظور تاريخي

من المهم إعادة النظر في الانتشار الموثق للجنس والعنف الجنسي في مناطق النزاع والحروب، من أجل فهم منطق العنف الجنسي الذي يشكل حجر أساس في الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي والإبادة الجماعية الفلسطينية. في الإبادة الجماعية في البوسنة والهرسك وتقسيم الهند، تعرضت أجساد النساء للاغتصاب والعنف على نطاق واسع، فقد اعتُبرت أجساد النساء "ضواحي قومية رمزية" (Aretxaga, 1997). لطالما اعتبر الخطاب القومي جسد المرأة وملكية الجسد الأنثوي رمزاً للمطالبة بجسم قومي (Shalhoub-Kevorkian, 2009, p. 85). وكما رأى Dowler في سياق غرب بلفاست، إيرلندا الشمالية، توفر الحروب والنزاعات أرضاً خصبة لما يسميه "الذكورة المفرطة" (Dowler, 2002).

نود أن نلفت الانتباه إلى أساليب ممارسة العنف الجنسي في مشاريع العبودية، الاستعمار، العسكرية، الاحتلال، والحروب، ولكن تحليلنا يتعدى الإطار النسوي الشمولي الذي يختزل الاغتصاب والعنف الجنسي إلى سلاح أو منتج ثانوي لمختلف أشكال القوة. إن تركيز التحليل على القمع الذكوري - بغض النظر عن انعدام المساواة العرقية، الاجتماعية، الجندرية وغير ذلك - يهمل العلاقات البنيوية القائمة بين أنظمة القمع المتشابكة هذه. في الواقع، واستناداً إلى باحثات نسويات أصلانيات سود البشرة، نلاحظ وجود رابط متين بين الهيمنة العرقية والاستعباد الجنسي (Smith, 2005; Shalhoub-Kevorkian, 2009; Hartman, 1997; Spillers, 1987). العنف الجنسي ضد النساء السود كان عاملاً مركزياً في استعباد ذوي البشرة السوداء خلال فترة العبودية (Hartman, 1997)، وكما تذكرنا Joy James، لا يزال العنف الجنسي والعرق جزءاً من "الديمقراطية" الأمريكية اليوم (James, 2013, p. 124). لا تزال السيطرة على أجساد النساء سود البشرة وقدراتهن الإنجابية تميز محاولات الإبادة الجماعية في الأمريكتين (Roberts, 1998). في السياقات الاستعمارية، ارتكب العنف الجنسي

ضد أجساد النساء الأصلانيات من خلال الاغتصاب، التحكم بقدراتهنّ الإنجابية، التعذيب والقتل كوسائل للقضاء على المجتمعات الأصلانية وعلى استمرارية وجودها على أرضها. فعلى سبيل المثال، خلال الحرب الأهلية في چواتيمالا، والتي استمرت 36 عاماً، استخدمت قوات أمن الدولة الاغتصاب والتعذيب ضد أجساد النساء الأصلانيات بشكل مُمنهج، كمارسات مركزية فيما تسميه منظمة الأمم المتحدة بالإبادة الجماعية للشعوب الأصلانية.

إنّ ارتباط العنف الجنسيّ بالمشاريع الاستعمارية الفوقية البيضاء التي تهدف إلى السيطرة، التحكم، والقضاء على أجساد النساء الأصلانيات، يُعتبر عامل تكويني في بُنية الأنظمة القائمة على أساس عرقيّ. العنف الجنسيّ ليس مجرد منتج ثانويّ للاستعمار، ولكن " الاستعمار - بحدّ ذاته - مبنيّ وفق منطق العنف الجنسيّ " (Smith، 2003، p. 70). العنف الجنسيّ الممارس على أساس عرقيّ هو مجاز للقانون الاستعماريّ المرتبط بالبُنية العرقية للذكورة:

”اللقاءات الجنسية بين الرجال البيض والنساء الأصلانيات اتخذت، غالباً، شكل الاغتصاب. هذه الذكورة العنيفة الممارسة على أساس عرقيّ كانت - في الواقع - الجانب السفليّ للصيغة المقررة للقانون الاستعماريّ... نشأ العنف الجنسيّ العرقيّ كنموذج هامّ أو كمجاز ”للقانون الاستعماريّ“، مرتبطاً بـ”البُنية العرقية للذكورة““ (Mohanty، 2003: 60).

باختصار، نحن نتمحور حول حقيقة أنّ العنف الجنسيّ والترهيب الممارسين ضدّ العرق ”الأخر“ - نعني، هنا، أجساد النساء الأصلانيات، وذوات البشرة السوداء والسمرء - يشكّلان حجارة الأساس في بُنى أصول الحكم الحديثة التي ترتكب مثل هذه الجرائم. وبالإضافة إلى ذلك، ومن خلال عدم إيجاد القاسم المشترك بين التجارب والمكانة البنيوية للنساء الأصلانيات والسود البشرة، والوقوع في ما يسميه واضع النظريات العرقية Jared Sexton ”أشخاص عمى الألوان“ (Sexton، 2010) إنّنا نوّكد على ارتباط منطق العنف الجنسيّ بمشاريع الإبادة الجماعية ضدّ المجموعات العرقية ”الأخرى“.

العنف الجنسي والإبادة الجماعية الفلسطينية منذ النكبة

إنّ فهم الاعتداءات المكثّفة على أجساد النساء الفلسطينيات خلال الهجمات المتزايدة التي يشنّها النظام الاستعماريّ الاستيطانيّ يتطلّب تحليلاً نسوياً يتّخذ النكبة كنقطة انطلاق تحليلية (Shalhoub-Kevorkian، 2010). أقيمت دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية مُستخدمة القتل والتهجير والاعتصاب.

هناك توثيقات عديدة حول محاولات طمس جرائم القتل والاعتصاب ضدّ النساء الفلسطينيات، وحول كونها عاملاً مركزياً في المجازر وحملات التهجير المنهجة التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية خلال هدم القرى الفلسطينية عام 1948 (Morris، 1987؛ Slyomovics، 2007).

في بحثه حول مجرزة دير ياسين، يقول Levin:

”لم يُعطَ أيّ إنذار حول هجوم وشيك، رغم ادعاء بيغن أنّه تمّ تحذير أهالي القرية، مسبقاً. تمّ التغلّب بسهولة على المقاومة الأولية لقرية دير ياسين، وطلب من جميع السكان التجمّع في ساحة القرية. هناك، طلب منهم الاصطفاف أمام الجدار وأطلقت عليهم النار. أفادت شاهدة عيان أنّ شقيقتها، التي كانت حاملاً في الشهر التاسع، تلقت الطلقة في الرقبة الخلفية، ثمّ شقّ المعتدون بطنها بسكين جزّار وأخرجوا الطفل الذي لم يولد بعد. عندما حاولت امرأة عربية أخذ الطفل، أطلقت عليها النار. وأفاد شهود عيان أنّ أعضاء هذه العصابة اليهودية من النساء نسّقن الأعمال الوحشية التي ارتكبتها نظرائهنّ الرجال. اغتصبت النساء أمام أعين أطفالهنّ قبل أن يُقتلن ويُلقى بهنّ في البئر، حتى إنّ ممثلي اللجنة الدولية للصليب الأحمر المعتادين على مشاهد العنف أصيبوا بالاشمئزاز ممّا رأوا“ (Levin، 1950، p. 57).

عبّر دافيد بن غوريون عن الفكرة نفسها، ولكن بكلمات أخرى، في مذكراته من عام 1948.³

3. يُنظر: <http://whatreallyhappened.com/WRHARTICLES/palestinians.php> و <http://student.cs.ucc.ie/cs1064/jabowen/IPSC/php/db.php?qid=418>

(Bar-Zohar، 1968، p.157) إذ أيد قتل النساء والأطفال الفلسطينيين، معتبراً إياهم تهديداً للكيان السياسي الاستيطاني اليهودي، وفي الوقت نفسه منح مكافآت لكل أم يهودية تلد طفلها العاشر (Kanaaneh، 2000). ضمن بن غوريون إدارة هذه الحوافز الداعمة للإنجاب بيد الوكالة اليهودية، وليس الدولة، لضمان استثناء العرب (Davis and Lehn، 1983)⁴.

إنّ التحكم بالخصوبة جعل الفلسطينيين - وخصوصاً النساء - عرضة للخطاب القومي الذي يسيّس تكاثرهم بشكل معمّق (المرجع السابق). وبالنسبة للصهاينة، وكما رأينا في العدوان الأخير على غزة، فلطالما كانت النساء الفلسطينيات عرضة لآلة القتل الصهيونية.

تتناول شلهوب-كيفوركيان (2009) قضية أجساد النساء كأسلحة في المناطق الاستعمارية ومناطق النزاع، معتبرة إياها "تسليحاً لأجساد وجنسانية النساء". وتؤكد أنّ "تحويل أجساد النساء إلى أسلحة" ليس حدثاً هامشياً، بل قضية جوهرية "تتحقق تحت ظروف استعمارية" (Shalhoub-Kevorkian، 2009، p. 115). يشير تحليلها إلى أنّ العنف ضدّ أجساد وجنسانية النساء الفلسطينيات تعزّز بيد الدولة الصهيونية لتقوية البنى الذكورية الأصلية وللمساهمة في طرد الفلسطينيين من أرضهم. إنّ الاعتداءات الجنسية العسكرية تفاقمت في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي (Ibid، p.13). وإنّ التهديد بالعنف الجنسي ضدّ النساء الفلسطينيات، والمفاهيم الذكورية للجنسانية و"الشرف" استغلّتها الدولة الإسرائيلية والقوات العسكرية من أجل "تجنيد الفلسطينيين كمتعاونين" خلال الثورات، ولردع محاولات المقاومة المنظمة (Ibid، p. 14). بهذا، فإنّ العنف الجنسي ضدّ أجساد النساء الفلسطينيات مترسّخ في آلية القمع الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية. "الاغتصاب" الفعليّ والمجازي لأجساد النساء الفلسطينيات، التي يرى الكيان الصهيوني أنّها قابلة للانتهاك، يستند - بطبيعة الحال - إلى منطق العنف الجنسي الذي يدعم الانتهاكات التي يمارسها المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ والمصادرة المستمرة لأراضي الفلسطينيين.

4. في الخمسينيات، جعل بن غوريون، أول رئيس وزراء في إسرائيل، موضوع خصوبة المرأة أولوية قومية، مدّعياً أنّ "زيادة معدل المواليد اليهود حاجة ضرورية لوجود دولة إسرائيل" وأنّ "المرأة اليهودية التي لا تنجب أربعة أطفال - على الأقل - تحتال على البعثة". يُنظر: Sharoni، S. (1995). *Gender and the Israeli-Palestinian Conflict: the Politics of Women's Resistance*. Syracuse University Press

نزع القناع عن منطق العنف الجنسي

الصمت المحيط بمحاولات الآلية الصهيونية لممارسة العنف الجنسي ضد النساء الفلسطينيات⁵ ومجتمعاتهن - اتضح أكثر فأكثر منذ بداية العمليات العسكرية التي شنتها الدولة مؤخراً. إن نزع القناع عن منطق العنف الجنسي الذي يكون المشروع الاستعماري الاستيطاني الإسرائيلي يرافق فضح زيف الديمقراطية الإسرائيلية المزعومة، ويكشف عن حاجة المستعمر الإسرائيلي إلى قتل، إبادة، وطرد الفلسطينيين، إذ أن شعارات "الموت للعرب" و "العرب إلى الخارج" أصبحت أكثر ظهوراً، استخداماً، وقبولاً في الحيز العام.

في الأول من تموز 2014، فور اكتشاف جثث ثلاثة شبان من المستوطنين اليهود الذين اختفت آثارهم في الضفة الغربية المحتلة، أشار مردخاي كيدار، الباحث في مركز بيجن - السادات للدراسات الإستراتيجية، في الإذاعة الرسمية إلى أن "الرادع الوحيد ل... هؤلاء الذين اختطفوا الأطفال (الإسرائيليين) وقتلهم، الطريقة الوحيدة لردعهم هي إبلاغهم بأن شقيقتهم أو والدتهم سوف تُغتصب إذا ألقى القبض عليها... هذه هي ثقافة الشرق الأوسط". (Kedar, 2014)

لم نُفاجأ، نحن - النسويات الفلسطينيات - بما قاله كيدار عن ردع المقاومة من خلال اغتصاب أجسادنا. إن الإدلاء بهذه التصريحات عبر الإذاعة الرسمية، علناً وعلى مسامع الجمهور اليهودي الواسع، بمن في ذلك الرجال والنساء، والنساء اليهوديات النسويات، يعكس العقلية الاستيطانية وتفاعلها مع الفلسطينيين. إن طرح موضوع اغتصاب النساء الفلسطينيات كإستراتيجية عسكرية من قبل باحث من إحدى الجامعات الشهيرة في إسرائيل يرفع الستار عن صورة النساء المستعمرات الراسخة في أذهان القوى الاستعمارية وعن ذهنية الاستعمار بأنه ماكنة اغتصاب للمادة والإنسان.

إن تصريحات كيدار الاستشراقية لا تختلف، إذًا، عن التصريحات التي تُكتب على أسوار البلدة القديمة خلال اعتداءات تدفيع الثمن ("تاچ ميحير")، التي تنادي بـ "الموت للعرب"، ولا تختلف عن

5. إضافة إلى تركيز تحليلنا حول النساء الفلسطينيات، تجدر الإشارة إلى استخدام الدولة الصهيونية للعنف الجنسي كنهج لكبح "التهديد الديمغرافي" ضد بعض أجساد النساء اليهوديات، بمن في ذلك النساء اللاتي ينتمين إلى أقليات عرقية (كالنساء الإثيوبيات) والمجتمعات المستضعفة. وأثناء محاولاتها لكبح معدلات الولادة لدى النساء اليهوديات الفقيرات و/أو السود البشرة، وهي ممارسة منبثقة - وفق تحليلنا - عن المشروع العرقي لكبح التكاثر والبقاء الفلسطيني، تسعى إسرائيل لزيادة معدل الولادة لدى اليهود الأوروبيين من خلال ممارسات حديثة، ك شراء البويضات للاستنساخ البشري من نساء فقيرات من أوروبا الشرقية. وبالإضافة إلى ذلك، أشارت الدولة اليهودية إلى أن القانون الذي يقضي بمنع الاستنساخ البشري (1999) بطل مفعوله، والعديد من الأطباء، الساسة، والباحثين الاجتماعيين اليهود، يتبنون هذه الممارسة كإستراتيجية أخرى للحفاظ على أفضلية ديمغرافية يهودية في أرض فلسطين.

الجرائم التي ارتكبتها من أحرق الطفل محمد أبو اخضير حيًّا، ولا عن المجازر التي ارتكبت في حق غزة؛ كما أنه - بشكل عام - لم تحرك هذه الأحداث الشعب الإسرائيلي، ولم تُعتبر جرائم كراهية مجنسة.

وخوفًا من أن تُعتبر الخطابات المجنسة التي صرّح بها كيدار انحرافًا عمّا يسمّى بالديمقراطية اليهودية، تجدر الإشارة إلى أنه لم يكن الممثل الوحيد في مسرح العنف الجنسي الأخير. ففي طريقهم إلى قتل الفلسطينيين في غزة، يقرأ الجنود الإسرائيليون شعارات داعمة أعدّها أصدقاؤهم من المدنيّين اليهود - الإسرائيليين، تنادي: " اذهبوا لتنكحوا أمهاتهم، ثمّ عودوا إلى أمهاتكم" (Sheen، 2014).⁶ هذا وقد تجمع اليهود الإسرائيليون على سفوح التلال لمشاهدة وتهليل القصف العسكري لغزة (Sherman، 2014). إنّ اللذة الجنسية التي شعروا بها خلال مشاهدتهم لإعدامنا الجماعيّ تلخّصت بجملة وضعتها شابة يهودية على صفحة الفيسبوك: "لقد وصلت إلى ذروة النشوة برؤية قوات الدفاع الإسرائيلية تقصف المباني في غزة وتقتل الأطفال والعائلات في آنٍ واحد، بوم بوم" (Strickland، 2014). حتى إنّ رئيس وزراءهم تلقى صورة انتشرت بشكل واسع في الإعلام الإسرائيليّ، عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ، لامرأة محجّبة سميت "غزة"، عارية من منطقة الخصر إلى الأسفل، تحمل الرسالة: "بيبي، إقذف في الداخل هذه المرأة!" وتحمل توقيع "مواطنين داعمين للاجتياح البرّي" (المرجع السابق). أضف إلى ذلك التصريح العلنيّ لعضو الكنيست أيليت شاكيد، بوجوب قتل الأمّهات الفلسطينيّات.

إنّ الانسجام الوحشيّ بين اللغة المجنسة لـ"القذف داخل" النساء الفلسطينيّات و"القضاء" على الفلسطينيّين من خلال العدوان على غزة - يكشف عن العلاقة الارتباطية بين جنسانية المرأة المستعمرة وسلامتها الجسدية وبين المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ. إنّ اغتصاب الأرض المماثل لاغتصاب أجساد النساء تصدّر مقدّمة الهجمات الإسرائيلية الأخيرة التي تهدف إلى الإبادة الجماعية للشعب الفلسطينيّ.

إنّه باستمرار مجازر الإبادة الجماعية للفلسطينيين في غزة، تصدّر الطابع المجنس للاجتياح الإسرائيليّ والإرهاب العرقيّ ضدّ الأصلايين الفلسطينيّين السياسات القومية والنقاش السائد في الحيّز العامّ داخلة حدود 1948، أيضًا. نزلت النساء الفلسطينيّات إلى الشارع مع أبناء مجتمعهنّ ليتظاهرن في مختلف أرجاء فلسطين التاريخية ضدّ المجازر المستمرة في غزة. دخلت

6. هكذا كُتب على مدخل مستعمرة "أور يهودا"، وهي مستعمرة أقيمت على أراضي كفر عانة شرقي يافا.

المظاهرات العامّة منعطفًا مجنّسًا؛ حيث تحوّل نداء المتظاهرين بسرعة من "الموت للعرب" إلى "حنين زعبي زانية!". اعتدت الشرطة الإسرائيلية على النساء الفلسطينيّات من خلال سحبهنّ خارج الاحتجاجات في حيفا والناصرة واعتقالهنّ، أو ضربهنّ من قبل الجماهير العنصريّة. أصدرت شخصيات دينيّة قياديّة تتلقّى روايتها من الدولة بيانات دينيّة تنصّ أنّه يجوز - خلال الحروب - قصف المدنيّين الفلسطينيّين بهدف "القضاء على العدو". قام المجلس البلديّ - أور يهودا، وهي مستعمرة واقعة في المنطقة الساحلية في إسرائيل، بتعليق يافطة تدعوا جنود جيش "الدفاع الإسرائيلي" إلى اغتصاب النساء الفلسطينيّات والعودة سالمين إلى أمهاتهم: "سكّان أور يهودا يدعمون الجنود الإسرائيليين! أدخلوا بأمهاتهم وعودوا سالمين إلى أمهاتكم" (Sheen, 2014). إنّ تجلّيات خطاب العنف الجنسيّ والجندريّ - كما وردت في مشروع الاجتياح العسكريّ والقضاء على الفلسطينيّين الأصليّين - لا تشير إلى أنّ "ثقافة الاغتصاب" منتشرة في المجتمع الإسرائيليّ فقط، كما يرى البعض؛ بل إلى أنّ منطق العنف الجنسيّ والجندريّ ضدّ الفلسطينيّين شائع، أيضًا، لدى القوى الاستعمارية الاستيطانية التي تتجاوز الحدود المفروضة على فلسطين التاريخية من قبل الدولة اليهودية. نحن نرى أنّ القراءة في منطق العنف الجنسيّ - كما تجلّى في الحرب الأخيرة على غزة - في جميع الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، على امتداد التاريخ وخلال الهجمات الإسرائيلية الأخيرة على شعبنا وأراضيها - تلزمنّا النظر إلى الدولة الاستيطانية الإسرائيلية والمجتمع الاستيطانيّ باعتبارهما كيانين غير منفصلين، بل مرتبطين ببعضهما بعضًا، من خلال تصوّر نفسيّ وسياسيّ غريزيّ يتجاوز الانقسام المؤطّر بين الدولة والمجتمع المدنيّ. وكما يشير Lorenzo Veracini، فإنّ المستوطنين "يحملون سيادتهم معهم" (Veracini, 2010). ولأنّ مشروع السيادة الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية يرتكز على منطق العنف الجنسيّ ضدّ الفلسطينيّين الأصليّين الذي ينتهك الجسد والأرض، فإنّ أجهزة الدولة (بمن في ذلك مسؤولو الدولة المنتخبين والمؤسّسات الأكاديمية والعسكرية) والمجتمع الاستيطانيّ (بمن في ذلك الجماهير الإسرائيليّة - المتواصلة مع الأيديولوجيا الصّهيونيّة) تجسّد كلّها، معًا، آليّة العنف الاستعماريّ الاستيطانيّ. من المتوقّع إذًا، أن تشنّ أجهزة الدولة الرسمية والأطر الاستيطانية غير الرسمية هجومًا خطيرًا على جنسانيّة النساء الفلسطينيّات وعلى أجسادهنّ وحياتهنّ، في سياق الغزوات الأخيرة ضدّ شعبنا في غزة وفي مختلف أنحاء فلسطين التاريخية.

الصهيونية ومنطق العنف الجنسي

عند تدارس العنف الجنسي ضمن سياق الدولة الصهيونية - نرى أن مبنى النظام الاستعماري الاستيطاني الإسرائيلي يتبع مبدئين متناقضين يعملان في آن واحد: غزو/انتهاك/احتلال مقابل هيمنة/تطهير/تعيين الحدود. يعود مبدأ الغزو/الانتهاك/الاحتلال إلى الممارسات العنيفة للاستيلاء على الأراضي، سلبها، وانتزاعها. نتدارس العنف الجنسي ضمن سياق الحركة الصهيونية الدينية-القومية. لقد صممت الصهيونية مشروعها "القومي" من خلال التلاعب بالمشاعر "الدينية"، وفي الوقت نفسه وضعت بمحاذاة التاريخ والعرقية/العنصرية.

إن الدعوة إلى العنف الجنسي في النظام الصهيوني متأثرة بالأيديولوجية الصهيونية التي تضع الحدود بين المقدس والمدنس. وفي حين يرى Douglas أن هذه الحدود تحمل في طياتها خطر "غزو المقدس لما هو مدنس وغزو المدنس لما هو مقدس... العلاقات مع المقدس تتجلى من خلال طقوس الفصل والتمييز، وتتعرّز من خلال المعتقدات السائدة حول الخطر الناتج عن اجتياز الحدود الممنوعة" (Douglas, 1975, p. 50). ولكن في حين توضع الحدود الجيوسياسية، السياسية - الحيوية والسياسية المميّنة للنظام الصهيوني وفق طقوس الفصل والتمييز، تعمل طقوس التطهير، التطويق، وصنع الحدود كطقوس مجنّسة للغزو، الانتهاك، والاحتلال.

يعمل منطق العنف الجنسي - وفق تحليلنا - ضمن السياق الاستعماري الاستيطاني الصهيوني، من خلال ترسيم الحدود وتجاوزها في آن واحد. الغزو والتأصل الاستيطاني ينفذان من خلال التمييز الثقافي العرقي بين الفرد والأمة اليهودية المتحضرة والعصرية، وبين الـ"آخر" البربري، غير المتحضر والسابق للحداثة.

على الصعيد اليومي، يمارس العنف الجنسي لتنفيذ وتمييز المشروع الصهيوني النقي وفصله عن "الآخر" المختلف ثقافياً، عرقياً، دينياً (وراثياً). ومن الناحية القومية - الدينية، إنه يستنسخ حدوداً جديدة لإعادة التأكيد على منطق الإجماع وعلى منطق الآخر. العنف الجنسي - في السياق الصهيوني - يتطلب دراسة وضوح الحدود بين "الطاهر والمدنس" وفهم الممارسات اليومية وعنصر الزمان والمكان. وكما يشير الباحثون، نشأ المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني كمشروع قومي - عصري ولاهوتي في آن واحد، كالوارد في المنشور الديمقراطي اليهودي. الفرضيات اللاهوتية لهذا المشروع مترسّخة بقوة في المبادئ الصهيونية حول استرداد

الأرض والعودة إلى صهيون (Raz-Krakotzkin، 2002؛ Kimmerling، 1998). هذه هي، تحديداً، قاعدة النظرية اللاهوتية الدينية - القومية التي تميّز بين المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ الصهيونيّ والمشاريع الاستعمارية الاستيطانية الأخرى.

إنّ إطلاق صواريخ غزّة على إسرائيل، الذي يرمز إلى الاختراق القضيبّي للدولة القومية، أدّى إلى زعزعة الإيمان بالقدرة الكلّيّة لما هو "مقدّس". من هنا، كشفت الآليّة الاستعمارية لغزو الجسد والأرض، والحاجة إلى استصلاح الذكورة الصّهيونيّة المتكسّرة عن الوجه الحقيقيّ للاحتلال الصّهيونيّ الجنّس. ومن خلال الخطاب غير المجمل، السائد عبر شبكات التواصل الاجتماعيّ، البرامج الإذاعية والتصريحات غير المقيّدة، تسلّت الأصوات الذكورية والمفعمة بالعنف الجنسيّ. إنّ قراءة الكتابات على صفحات الفيسبوك، الشعارات الموجودة في الشوارع، النداءات في المظاهرات، التصريحات والتحليلات "العلمية" للخبراء الصّهاينة تخترق أسطورة الديمقراطية اليهودية الإسرائيلية وترفع النقاب عن الأسس العرقيةّ الجنّسة للمشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ. نحن نرى أنّ تجلّيات العنف الجنسيّ هذه ليست منتجاً ثانوياً للحروب والنزاعات المكثّفة، فقط، أو مجرد نتيجة للهجمات الصاروخية الذكورية على ما هو "مقدّس"، بل تعبّر، أيضاً، عن المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ المركّب، الديناميكيّ و«التحرّريّ» الذي يعزّز، يضمن، ويحرّك الهدف الأساسيّ للاستعمار الاستيطانيّ الإسرائيليّ، ألا وهو القضاء على الفلّسطينيّين الأصليين.

استنتاج

إنّ منطوق العنف الجنسيّ هو المحرّك للاعتداءات على أجساد وحيوات النساء الفلسطينيّات، كما هو المحرّك للغزو المتواصل ومصادرة الأراضي الفلسطينيّة. إنّهُ أحد الأسس التي تشكّل المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ الإسرائيليّ. وبالتالي، إنّ النضال من أجل تحقيق السيادة الأصليّة - ضمن النشاط النسويّ المناهض للاستعمار - يسعى، حتمًا، لحماية السلامة الجسدية للنساء الفلسطينيّات، وحماية جنسانيّتهنّ، عائلتهنّ، وحقّهنّ الجماعيّ في الحياة. إنّهُ نضال ضدّ العسكرة الصهيونية التي تميّز بالذكورة المفرطة، وضدّ الأجهزة الاستيطانية التي ترى أنّ النساء الفلسطينيّات هنّ - بطبيعتهنّ - ذاك العرق "الأخر" الذي يشكّل تهديدًا، أنّ أجسادهنّ قابلة للانتهاك والإبادة، وأنّهنّ لسن ذاك العدو "الأخر"، فقط، بل، أيضًا، "آلة إنجاب الشعب الفلسطينيّ". هذا المنطق هو جزء لا يتجزأ من منطق الإجلاء الاستعماريّ المرتبط بالإبادة الجماعية.

ونظرًا إلى اهتمام النسويّات الفلسطينيّات بسلامة أجساد النساء وحيواتهنّ، باستمرارية وجود الشعب الفلسطينيّ والأجيال القادمة، وبقدرتنا على المحافظة على ارتباطنا بوطننا الفلسطينيّ، ندعو النسويّات - على الصعيدين المحليّ والدوليّ - إلى الانضمام إلى نضالنا وإلى رفع أصواتهنّ ضدّ المحاولات المستمرة للقضاء على الشعب الفلسطينيّ، وهي محاولات تحمل طابع الإبادة الجماعية.

Bibliography

- Abunimah , A. (2014, July 7). Israeli lawmaker's call for genocide of Palestinians gets thousands of Facebook likes. *Electronic Intifada*. Retrieved from <http://electronicintifada.net/blogs/ali-abunimah/israeli-lawmakers-call-genocide-palestinians-gets-thousands-facebook-likes>.
- Aretxaga, B. (1997). *Shattering Silence: Women, Nationalism, and Political Subjectivity in Northern Ireland*. Princeton: Princeton University Press.
- Bar-Zohar, M. (1968). *Ben-Gurion; the armed prophet*. London: Barker.
- Davis, U. & Lehn, W. (1983). "And the Fund Still Lives: The Role of the Jewish International Fund in the Determination of Israel's Land Policies", *Journal of Palestine Studies*, Vol. 7 (4), p.3, at pp.4-6(1978).
- Douglas, M. (1975). *Implicit Meanings: Essays in anthropology*. Routledge and Kegan Paul Ltd.
- Dowler L, 2002. "Till death do us part: masculinity, friendship, and nationalism in Belfast, Northern Ireland." *Society and Space*, 20(1). 53-71.
- Goldberg, D.T. (2009). *The Threat of Race*. Hoboken, New Jersey; Blackwell Publishing.
- Hartman S. (1997). *Scenes of Subjection: Terror, Slavery, and Self-making in Nineteenth Century America*. New York: Oxford University Press.
- James, J. (2013). "Afrarealism and the black matrix: maroon philosophy at democracy's border". *The Black Scholar* 43.4 (Winter 2013). p. 124.
- Kanaaneh, R. (2000). *Birthing the Nation: Strategies of Palestinian Women in Israel*. University of California Press.
- Kimmerling, B. (1998). "Between hegemony and dormant *Kulturkampf* in Israel". *Israel Affairs Special issue: In Search of Identity-Jewish Aspects in Israeli Culture*. Vol. 4 (3-4): 49-72.)
- Lentin, R. (1999). "The rape of the Nation: Women Narrativising Genocide". *Sociological Research Online*. Vol. 4 (2). See the link <http://www.socresonline.org.uk/4/2/lentin.html>
- Levin, H. (1950). *Jerusalem Embattled: A Diary of the City Under Siege March 25, 1948 to July 18th, 1948*. United Kingdom: Cassell.
- Mohanty, C. T. (2003). *Feminism Without Borders: Decolonizing Theory, Practice and Solidarity*. Durham, NC: Duke University Press.

- Mordechai Kedar, interview by Yossi Hadar, *Hakol Diburim*, Reshet Bet, 2 July 2014, accessed 15 July 2014, www.iba.org.ila/bet/player.aspx#!/style/popAudio/ar/1567635/audio/yes
- Morris, B. (1987). *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949*.
- Raz- Krakotzkin, A. (2002). "A National Colonial Theology: religion, Orientalism and the Construction of the Secular in Zionist Discourse". *Tel Aviv Jahrbuch fur deutsche Geschichte* 30:312-326.
- Roberts, D. (1997). *Killing the Black Body: Race, Reproduction, and the Meaning of Liberty*. Pantheon Books.
- Sexton, J. (2010) People-of-Color-Blindness: Notes on the Afterlife of Slavery. *Social Text*, 28. Retrieved from http://socialtext.dukejournals.org/content/28/2_103/31.abstract.
- Shalhoub-Kevorkian, N. (2009). *Militarization and Violence Against Women in Conflict Zones: A Palestinian Case- Study*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Sheen, D. (2014, July 23). Israel's War Against Gaza's Women & Their Bodies. Muftah. Retrieved from http://muftah.org/israels-war-gazas-women-bodies/#.U_eeUVYtXwI.
- Sherwood, H. (2014, July 20). Israelis gather on hillsides to watch and cheer as military drops bombs on Gaza. *The Guardian*. Retrieved from <http://www.theguardian.com/world/2014/jul/20/israelis-cheer-gaza-bombing>.
- Smith, A. (2005) *Conquest: Sexual Violence and American Indian Genocide*. Boston, Massachusetts: South End Press.
- Spillers, H. (1987). "Mama's Baby, Papa's Maybe: An American Grammar Book". *Diacritics*, Vol. 17, No. 2, Culture and Counteremory: The American Connection, pp. 65-81.
- Strickland, P. (2014, July 13) Bombing of Gaza children gives me "orgasm": Israelis celebrate slaughter on Facebook. *Electronic Intifada*. Retrieved from <http://electronicintifada.net/blogs/patrick-strickland/bombing-gaza-children-gives-me-orgasm-israelis-celebrate-slaughter-facebook>.
- Veracini, L. (2010) *Settler Colonialism: A Theoretical Overview*. Hampshire, UK: Palgrave MacMillan.
- Wolfe, P. (2006). Settler Colonialism and the Elimination of the Native. *Journal of Genocide Research* 8 (4): pp. 387-409.